توما الاكويني وإشكالية الآخر

"الآخر، التسامح ، الهرطقى"

د. احمد عبدالسادة زوير

كلية الامام الكاظم (ع) للعلوم الاسلامية الجامعة

ملخص البحث

يدور البحث عن اكثر المواضيع التي شاعت اعقاب التفكير اللاهوتي المسيطر به في اوربا بعد سيطرة الكنيسة على زمام المجتمع السياسي فما كان عليها الا ان تبحث عن اجوبة في قبول الاخر المخالف عقديا وفق معطيات النص الديني المقدس والعقيدة التي سنتها مجموعة قوانين من رجال السلطة الاكليركية ، واضاف الجواب الفلسفي عن طريق القديسين وبالذات الذين مزوجوا بين معطيات الوحي ومعطيات العقل الطبيعي "البشري" في مشروعية التسامح الدين وقبول الاخر المخالف عقديا في المجتمعات المسيحية، وهو ما بحثناه في فكر القديس توما الاكويني الذي يعد من اشهر فلاسفة ما قبل عصر النهضة والاصلاح الدين الذي فتح بابا امام الاصلاحات الدينية والانفتاح على غير الملل. لذا ناقشنا اربع موضوعات اولها قواعد الحوار والنظر ، وثانيا: قبول الاخر، وثالثاً: التسامح الدين، ورابعاً: موقف توما الاكوين من الهرطقى.

Tommaso d'Aquino and the problem of the other

the other , tolerance and heresy.

Dr..AhmedAbdalsadhZoer

Imam Kadhim College (AS) Islamic Science University

Abstract

Going search for more threads that were common punishment theological reflection dominant in Europe after the control of the church on the reins of political society, what was it, but looking for answers in the acceptance of the other offending nodal according to data religious text sacred doctrine enacted Qgualnin group of church power, he added the answer is philosophical through the saints, particularly those who Mzojoa between the data of revelation and data natural reason "human" in the legality of the tolerance of religion and acceptance of others offending nodal in the Christian communities, which we discussed at the thought of St. Thomas Aquinas, which is the most famous philosophers of pre-Renaissance and reform religion that open Baba in front of religious reforms and opening-up is boredom. So we discussed four themes the first of rules and consider dialogue, and secondly: acceptance of others, and thirdly: tolerance of religion, and the Fourth: Thomas Alakowin position of Hertqy.

المقدمة

ان موضوع قبول الآخر من المسائل التي شاعت مع مشروع التسامح في شتى المجالات الدينية والاجتماعية والعرقية والاقتصادية، الا ان جذورها اللاهوتية قديمة وبالذات في المجتمعات المسيحية التبشيرية الدفاعية، ومن الشخصيات الفلسفية التي تناول هذا الموضوع قبل عصر الاصلاح الديني "القديس توما الاكويني (١٢٢٥ – ١٢٧٤) ففي موسوعته الخلاصة اللاهوتية " عرض وفق منظومته الرابطة بين العقل والنص الديني، وهو بذلك يفتح الباب لمراجعة ما يعرف بالحقبة الاسكولائية التي كانت تهيمن على الساحة الثقافية انذاك ومراجعة الجواب الدوغمائي الذي يمثل فقط روح الكنيسة التي تسعى لتوسيع رقعة السلطة الدينية من منطلق التبشير، الا ان هذا التبشير فرض مجموعة من الاولويات في قواعد القبول والحوار والاسلوب في بناء منظومة التسامح اللاهوتي، وبما اننا نوهنا الى ان توما الاكويني عرف بمنظومته الدينية الديني، لكنه يحاور ويجادل باسلوب الفلاسفة الداعي الى عقلانية الجواب ومنهجيته .

وبذلك يكون طرح مجموع أجوبة عن فرضية من هو الآخر المسموح التعاطي معه وما هي الحدود العقائدية المسموح به النظر والجدل في المسائل اللاهوتية وماهي الآلية المناسبة في الحفاظ على القضايا الاعتقادية من غير الملل .

وبالتالي تكون حدود بحثنا هي الديانة المسيحية ممثلةً باهم كتابها الا وهو القديس توما الاكويني مبرزين اهم الصفات التجريبية في مراعات الارادة الانسانية في الدعوى لمخالفين للدخول الى الايمان المسيحي الذي وضع قواعده القديس اوغسطين (٣٥٤– ٤٣٠) بان لايدفع للايمان المسيحي من لم يدخل الايمان بدافع الارادة الحرة التي تضمن للانسان حرية المعتقد والايمان.

لذا فالبحث يشمل الموضوعات التالية التي تعد المحور الحقيقي فيما اسميناه قبول الاخر...التسامح الديني.. فبعد المقدمة والتمهيد ناقشنا قواعد الجدل والحوار مع المخالفين وعلى ماذا يشترط في الجدل اللاهوتي من العلنية والسرية وموقف توما الاكويني منه. وبعدها تناولنا موضوع قبول الاخر او من هم الذين يقبلون في المجتمع المسيحي،ومن ثم نوضح مساحة الحرية للاديان واخيراً موقف توما الاكويني من الهرطقة وبيان مدى خطورتهما على المؤمنين.

التمهيد

ان من ينظر الى العصر الوسيط بشكل كلي على انه مملوء بالتشدد ولا يقبل التسامح وقائم على الاضطهاد، بل ان نصوص كثير من اللاهوتيين الذين يمثلون الفكر المسيحي انذاك مملوء بالحوار والجدل المبني على اساس قبول الاخر فكريا وعقديا واجتماعياً، الا ان هذا القبول غاب بسبب الكثير من الممارسات السياسية التي تشكل الصوت الاعلى ولاتمثل صوت الفلاسفة الذين اقل مايقال عنهم انهم فتحوا الباب الى عصر الاصلاح وصار معروفاً في الاوساط الفكرية اكثر من اي حقبة رغم تعرضه للاهمال في الجانب من العالم المسيحي وكذا في الجانب الفلسفي لكن ما ان زال عنه الغبار تبين صورته الجليه التي تمزج الروح اللاهوتية والفلسفية بمنظومة معرفية حاضره متمثله بالقديس توما الاكويني والباقية بواسطة التيار التوماويين[١] الذين بدؤا بعرض افكاره الى ايامنا هذه[٢]. وصار الاكويني يمزج بين العقيدة المسيحية والفلسفة الارسطية، وهكذا يتم تصحيح أخطأ أرسطو* كما تم إكمال النقص الموجود عنده.

ما نريد ان نقوله ان توما الاكويني كان اكثر الفلاسفة الذين عاشوا نجاحاً. فطموح كل فيلسوف – اذا اعتقد أن في استطاعته تحقيقه– هو أن يعرض في وحدة واحدة لكل معرفة موجودة في عصره، وكل معرفة كانت في العصور السابقة عليه، من حيث أن ذلك يلقي الضوء على طبيعة الانسان ومصيره ومكانته في الكون ومثل هذا الفيلسوف سيشع في الحال حب الاستطلاع العقلي، كما يقدم لنا مرشداً عملياً للسلوك في الحياة، ويقدم صورة مقبولة عن الواقع من الناحية الجمالية بقدر ما تسمح بها الحقيقة. ولقد كان القديس توما الاكويني اكثر الفلاسفة الاوربيين قرباً من تحقيق هذا الطموح. فقد اقر تماما وبوضوح مبادئ الفلسفة واللاهوت.[٣] التي بدورها سوف تفتح باباً امام رواد العصر الحديث "عصر النهضة" في مراجعة النصوص اللاهوتية من الحقبة الوسطى، بالذات كتابات توما الاكويني ومدرسته بحثُ عن النصوص التي تمثل جذور الاصلاح وينبوع التسامح

الديني وقبول الآخر الذي صار ديدن وسمة عصر النهضة مع انطلاق مشروع التنوير الذي غطى العصر الحديث

وان الاصلاح والتسامح وقبول الاخر كان المحرك الحقيقي لظهور التنوير في اوربا لانه كما ينقل الدكتور هاشم صالح عن البرفسور رولان مورتييه: ان التنوير كان موجود بالنصوص الدينية المورث من الكتاب المقدس متداولة في كتابات العصور الوسطى من مؤلفات اللاهوتيين المسحيين والصوفية(٤)

فالغافل عن هذه الحقبة بدعوى التشدد والظلام هو عزل تاريخ الفكر الذي لا ينقطع بعضه عن البعض. من دون تحقيق بصورة علمية والا صار كل زمان يخالطة الفهم الديني بانه مظلم ويملؤه الاضطهاد.

وان التعذيب والاضطهاد الذي مارسته الكنيسة عن طريق احياء بعض النصوص او التعكز على النصوص اليهودية التي اعطت رجالات الكنيسة الحق في الدفاع عن الدين، وبذلك يدافعون عن وجودهم بقدر ما يدافعون عن الدين او العقيدة " لقد حدث في تلك الفترة تعذيب واضطهاد غير قليل ولكنه لم يكن اضطهاداً منسقاً وانه ليبدو لي ان الكنيسة كانت مدفوعة في مطاردة الالحاد باعتبارات مصلحتها الدنيوية(٥) ".

المبحث الاول: قواعد الجدل والحوار

يتوجه علماء اللاهوت الديني في جميع الديانات السماوية على استعمال منهج البرهان في بعض مسائل الكلام، كما يستعينون حيناً آخر بمنهج الجدل بينما يعمدون الى الادوات والمبررات التاريخية في بعض المسائل ثالثة الى جانب انهم يستعملون في بعض الحالات النادرة بالطبع، المناهج الدينية الجوانية(٦)

وبما ان علم اللاهوت بخلاف فلسفة الدين لاعتماده على الطابع الوسائطي، الذي يمثل برنامجا تعليمياً تبشيرياً دفاعياً عن العقيدة الدينية، فصار إلزاماً على علماء اللاهوت والكلام ان يضعوا قواعداً بشأن الحوار مع المخالفين الوثنيين (الكفرة) وغيرهم من اليهود الذين يعترضون في كثير من المسائل الايمانية(٧)

لذا يصوغ توما الاكويني قواعد للجدل والحوار مع المخالفين في الايمان " الكلام" والمراد منه الدفاع عن العقيدة الدينية من التشويه والتشكيك على أساس فساد العقل المحاور او المجادل في دفع الشكوك والشبهات داخل الايمان المسيحي " اللاهوت" فقد وضع توما الاكويني مقال بعنوان _هل ينبغي مجادلة الكفرة علنا_ وهو يريد ان يضع شروط واساسيات للمجادلة في المسائل العقدّية، وهل هذا الجدل يكون بصورة علنياً، فبولص الرسول يصرح : لا تماحك بالكلام لان هذا لاينفع شيئاً وانما يهدم السامع[٨] " او النهي هنا عن الجدل العلني وبالذات اذا كان المجادل والسامع ليسوا عن قدر معين من العقيدة "الايمان" فالتحذير اولى من إعلانه وزراعة الشك والشبهات في قلوب ضعيفة الايمان، وثانيا المعلم الاكويني يعتمد على شريعة مرقيانوس اوغسطوس المثبتة بالقوانيين: من ادعى اعادة النظر والمجادلة علنا في ما قد تقرر على وجه السداد فقد احتقر بذلك حكم المجمع المقدس[٩] " وهو يبين موقف المجمع من المتجادلين في المسائل التي نهى عنها واعدّ هذا النوع من المجادلة خطيئة ثقيلة لانه احتقر تعاليم المجمع المقدس، ويعتقد توما الاكويني ان القضايا العقائدية تقوم على اساس من الايمان، والايمان المبني على اليقين، واذا كان هناك شك في امراً ما فلابد من ايراد مجموعة من الحجج، وبما اننا ذكرنا ان الايمان يقوم على اساس اليقين فلا يجوز زحزحت هذا اليقين بالجدل العلني. فهل ان العقيدة المسيحية تعد نفسها من العقائد المغلقة؟ التي لاتستطيع الجدل والحوار في دفع الشبه وفتح المجال للذين يساورهم الشك في بعض الاعتقادات التي ان زالت لربما تفتح المجال لدخول افراد جدد من غير المعتقدين او من لم يدخلوا في عقيدة المسيح، وهو ما جاء في الصحاح من الرسل وهذا ما دفع الاكويني من وضع شروط لهذا الجدل العقدي في امرين الاول في المجادل والثاني هو الطرف السامع المتلقي.

فالمجادل تتوقف عليه القصد في الفعل، وهي على قسمين الاول هو من يريد ان يعرف بالحجج المعروضة عمق ايمانه اذا كان على حق وهو بهذا القصد يكون على شك من ايمانه، ويكون قصد غير صحيح[١٠]

اما الطرف الثاني من المجادل هو يقصد بجداله دفع الاوهام او التمرس في الجدال فيكون في فعله كما يقول محموداً.

اما بالنسبة لسامع الجدال، وفيه تفصيل نستطيع ان نجمله في شقين ايضاً على اساس القصد او النية اذا ما كانوا مثقفين في الايمان وراسخين فيه او سذجاً ومترددين فيه لان الاول ليس فيه خطر على صاحبه، اما السذج ففيه اكثر من وجه فقد يكون السامع متربص في المجادلة حتى يضعف من صاحبه وهو شيء من الاغراء الذي يقوم به بعض اليهود والوثنيين لكي يفسدوا دين المسيحية كما يذكر توما الاكويني، او كما ما موجود في بلاد ليس فيها كفرة، فيكون الجدال العلني امرا ضروريا في الايمان على ان يتولاه رجالا اكفاء قادرين على رد الأضاليل حتى لا يرموا بسذاجة الشك(١١) بالتالي فالتسامح في الحوار مبني على اساس حفظ العقيدة من عبث المتربصين والا فالحوار جائز اذا لم يهدد سلامة الايمان ، وكيان وحدة الكنيسة.

المبحث الثاني: قبول الاخر .... التسامح الديني

لقد كان فعل التسامح متداولاً منذ زمن طويل، من دون مصدره، في معرض الحديث عن الحرية الدينية، وقد كرس توما الاكويني، في الخلاصة اللاهوتية(١٢)، مقالة كاملة لمعالجة المسألة الاتية "هل نتسامح مع غير المؤمنين"؟ بحيث لن يملك اللاهوتيون الكاثوليك في زمن الاصلاح الا ان يرددوا، كلمات المعلم الملائكي، يصوغوا مسألة التسامح كالاتي: هل يمكن ان" نسمح" بوجود ديانتين أو اكثر او، بالاحرى مع من " نتسامح" في مملكة مسيحية واحدة ؟

فالمسيحية بعد ان انتقلت الى مرحلة مابعد الاضطهاد وصارت عقيدة تغطي مجموعة كبيرة من البقاع صارت تمثل مجتمع سياسي مستقل ولم تختلط بصورة واضحة مع الوثنيين في مجتمع واحد سياسي بشكل واضح، وان المسيحية لاتزال انذاك تحمل بعض الاباطيل التي تذكر الى حدّ ما بالوثنية، انما لم يعد هنالك ديانة وثنية، بالمعنى الصحيح، فالجميع، باستثناء اليهود، من اهل العماد اما الوثنيون فكانوا موزعين على الاطراف، في إسبانيا وافريقيا والشرق واوروبا الشرقية

والشمالية[١٣]. اذن فمسألة موقف الكنيسة كمؤسسة من غير المؤمنين لم تطرح خارج محيط العالم المسيحي.

لذا أشترط أوغسطين في تأسيس قبول الآخر "المخالف" تحقق الارادة من اجل الايمان " ليس بمستطاع اي امرئ أن يؤمن من دون ارادته[١٤]" وهذا الموقف من اوغسطين صار ملزم حتى صار بمثابة القانون في الايمان المسيحي، ان الايمان لا يكون بالاكراه ولا بالانتماء الى المسيحية، وهذا التسامح لم يتوقف، فتوما الاكويني يعزز كلام اوغسطين بقوله: "من غير المؤمنين من لم يتم تبشيرهم بالايمان، كاليهود والوثني. هؤلاء لا ينبغي أن يدفعوا الى الايمان دفعاً، لان الايمان قضية طوعية[١٥] " وهي معالجة للمجتمعات التي سادها التبشير المسيحي مع وجود مجموعات صغيره لم تدخل الايمان المسيحي عن طريق التعميد. وهنا التعميد مراد منه ان يكون طوعي وليس على اساس الاكراه[١٦]، والا كيف يجبر الانسان بالاكراه الى الايمان او التعميد بما لا يؤمن ويعتقد او بما يدخل قلبه، وهو ما ذكره اوغسطين وحذر منه الا انه وقع وحدث في القرن الخامس عشر على يد شارلمان حينما احتل بلاد الساكس وامر بتعميد سكانها وقتل كل من يرفض التعميد وهو يمثل التبشير بالدين الذي يلغي حقوق الانسان فيما يعتقد وصار الموت مرهون بقرار يحمل طابع الامر المقدس[١٧]. ويعلل ج. بيورى هكذا تصرفات من الحكام، ان الكنيسة تدفع الى قانون وقد سرى في اوربا على ان يحارب الحاكم ويستأصل " الالحاد" من رعيته وبخلافه سوف يعرض عرشه وارضه وكل ممتلكاته لضياع والسلب من قبل الكنيسة، وهم بذلك لا يريدون ان تتكون مجموعات قد تنازعهم في وجودهم الذي يزحزح وجود رجالات الكنيسة[١٨] وهذا الموقف بحد ذاته لايمثل جميع افكار اللاهوتيين وانما كما بينا سابقاً ان ارتباط الكنيسة بالسياسة هو الذي دفع البابوات لهكذا تصرفات والحروب الصليبية كانت مثال على توسيع نفوذ الكنيسة واسترداد الارض التي شهدت السيد المسيح من المسلمين وصارت توظف ايديولوجيا من اجل الكنسية وتوسيع رقعة حكمها[١٩]

فالمسيحية تشترك مع الاسلام في ذات الطموح بالتوسع الديني والسياسي، وان الفكرة الاضطهاد الموجودة عند المسلمين في قبول الآخر "الوثني" من حيث المبدأ، بنيت على اساس قراءة مايعرف بالاسلام السياسي الذي يوظفه مجموعة من وعاظ السلاطين من اجل طموح سلطة معين تسعى ان ترفع شعار العودة الى الجذور ومحاربة المارقين والمرتدين والمتهرطقين.

المبحث الثالث: حرية الاديان وعبودية الآخر

ان انطلاقات توما الاكويني بالشكل العقلاني لاتمنعه من الرجوع الى الكتاب المقدس والى القديسين والبحث عن ضالته التي تسوغ له بناء لاهوت في قبول العقائد والاديان المخالفة لعقيدته وان اسماها بالفكر كما يوضح هو في مقالته " هل ينبغي اكراه الكفرة على الايمان(٢٠) " فما ورد في انجيل متى قوله "فجت عبيد البيت وقالوا له: ياسيد، اليس زرعا جيدا في حقلك؟ فمن اين له زوان**، فقال لهم انسان عدو فعل هذا فقال له العبيد: اتريد ان نذهب ونجمعه؟ فقال لا! لئلا تقلعوا الحنطة مع الزوان وانتم تجمعونه(٢١) " كانت هذه الآية منطلقاً لتوما الاكويني وكلام القديس يوحنا الفم الذهبي في تعليقه على هذه الآية " اراد الرب بقوله هذا النهي عن القتل لانه لا يجب ان يقتل ولا المبتدع ايضاً لانه اذا قتلتموهم سقط معهم بالضرورة كثيرٌ من القديسيين(٢٢) ، وهنا يظهر الحجة من عدم إجبار الكفرة على الايمان ودفع الشر وان يتحول الايمان والدعوى له على الاساس الارادة الحرة وان لا يكره على اعتناق الايمان بالاكراه، وهو ما جعل الاكويني يستعين بنص قرار المجمع على صحة اللاهوتية ولقد اصبح الارغام على دخول إرغام على البقاء مع توما الاكويني الذي استوحى مفهومه هذا من احد البنود المقررة في مجمع توليدو الرابع المنعقد عام ٦٣٣م وهو بند يتعلق بارتداد اليهود اورده غراسيانس تحت العنوان الاتي " كما إن اليهود لم يكرهوا على الايمان كذلك لا يجوز للمترددين منهم ان يتخلوا عنه . وهذا هو ملخص النص المجمعي في ما يتعلق باليهود، يقر المجمع المقدس بعدم ارغام احد منهم على اعتناق المسيحية بالقوة .... اما الذين سبق لهم ان ارتدوا اليها جبراً ... واقتبلوا الاسرار

الالهية ومالوا نعمة المعمودية ... فيتوجب ابقاؤهم في الايمان وان كان قد سبق لهم ان عتنقوه بالقوة او بحكم الضرورة كما يتوجب عليهم الا يحذفوا على اسم الله ويحتقروا او ينكرون الايمان الذي قبلوه[٢٣] ليس هذا فقط بل ان جواب القديس غريغوريوس الكبير في جوابه الشهير على استشارة بوريس، ملك بلغاريا عام ٨٦٦م له في موضوع الوثنيين "لا يسعنا ان نشير عليكم بسوى ضرورة العمل على اقناعهم ببطلان الاصنام عن طريق الحض والارشاد والنصح والبرهان بدلاً من اللجوء الى القوة[٢٤]" وتوما الاكويني بذلك لا يرُيد ان يخالف الارادة الالهية في رسم اللاهوت فيقبل جميع الاديان، وان ماجاء في انجيل لوقا" فَقَالَ السَّيِّدُ لِلْعَبْدِ: اخْرُجْ إِلَى الطُّرُقِ وَالسِّيَاجَاتِ وَأَلْزِمْهُمْ بِالدُّخُولِ حَتَّى يَمْتَلِئَ بَيْتِي[٢٥] " وهنا التساؤل على من يجب اكراه للايمان المسيحي في ما ورد من نص لوقا فيجيب توما الاكويني " من الكفرة من كانوا قد اعتنقوا الايمان يوما وهم يقرون به كالمبتدعة او اهل الردة وهؤلاء يجب اكراههم حتى بالعقوبات البدنية ايضاً على ان ينجزوا ما وعدوا به ويلزموا ما اعتنقوه من قبل[٢٦] "وان هذا التسامح التوماوي مع الوثنيين من اليهود وغير المؤمنين" فالكنيسة باعتبار الوجه الاول لا تحظر على المؤمنين مخالطة الكفرة وغيرهم الذين لم يعتنقوا قط الايمان المسيحي اذا ليس لها ان تحكم عليهم حكماً روحياً بل حكماً زمنياً وذلك متى كانوا مقيمين بين ظهراني المسيحين فارتكبوا ذنبا فعاقبهم المؤمنون عليه عقاباً زمنياً[٢٧] " وان التوافق في هذا الامر موكول في حال استغل احد الوثنيين ممارسة التضليل على قوم سذجا وضعفاء في الايمان[٢٨]

وهو الحال في معاشرة الكفرة ليس روحيا بقدر ما هو زمنيا فمن الذين امنوا وخرجوا من الايمان هم من يحذر منه المعاشرة والا الذين لم يدخلوا الايمان او انهم لايمثلون خطر على المؤمنين في زحزحة ايمانهم بسبب المعاشرة[٢٩] الطويلة لذا كان التخوف احترازي أكثر منه اضطهادي والتسامح واضح في فكرتي المصاحب والرئاسة غير المومنين من اليهود والوثنيين.

وربما يفهم ايضاً من الوهلة الاولى ان الاكويني لا يبدي تسامحاً واضحاً في شأن ممارسة الطقوس غير المؤمنين " واما طقوس سائر الكفرة التي لا تثبت ولا تفيد شيئاً فلا ينبغي احتمالها بوجه الا لاجتناب شر[٣٠] لكن إيضاح توما الاكويني لما تقدم من التخوف، قاده الى نتائج جيدة ، وهو ربما اجتناب الشر البسيط سوف يقودهم الى خير اعظم من التساهل للوهلة الاولى وان " التشكيك او النزاع مما قد يلزم عن عدم احتمالها او كمنع خلاص بعض ممن اذا احتمل ذلك منهم اهتدوا تدريجياً الى الايمان[٣١]" وهذا ما جعل الكنيسة وتوما الاكويني ان تتحمل طقوس بعض الكفرة سعياً الى الخير الاعظم الذي تحدث عنها من اجل التسامح الديني.

وبهذا يمكن ان نقول ان توما الاكويني امن بصورة واضحة بحرية الاديان الذي يتيح تطبيق ما يسمى قبول الاخر " حرية الاديان " مع غير المسيحيين وان آمن هو بان باقي العقائد والعبادات المبنية على اعتقادات خاطئة الا انه كما بينا يريد منها خير اعلى او اعظم او تجنب شر اعظم من فتح المجال امام من هم غير مؤمنين بالعقيدة المسيحية "وعلى هذا فالكفرة وان خطئوا بممارسة طقوسهم يجوز احتمال ذلك منهم اما لاجتلاب خير او لاجتناب شر[٣٢] "

ولكنها تحظر عليهم مخالطة أولئك الكفرة الذين ضلوا عن الايمان الذي اعتنقوه اما بافسادهم اياه كالمبتدع قلما تشدد توما الاكويني من طقوس الوثنية مع انها تخالف معتقده الديني، الا انه وجد ان التسامح يكون على اساس تجنب شر اعظم " لما كانت هذه الطقوس اليهودية، من عناصر الحقيقة والمنفعة، فلا مبرّر للتساهل بشأنها الا إذا كان المقصود بها تجنب شرّ اعظم[٣٣] " ومن ثم فان توما الاكويني انما اراد بهذا التسامح مع فسح المجال في ممارسة عقيدتهم املاً ان هذا التسامح سوف يفتح باب التشكيك في عقائدهم الفارغة وتحولها نحو الايمان الصحيح.

ويختتم الاكويني مقاله بهذا الخصوص من التسامح " لهذا السبب، أي تداركاً للمزيد من الشر، لاقت عبادات الهرطقة والوثنيين احياناً تسامحا من قبل الكنيسة حينما كان غير المؤمنين لا يزالون يشكلون جماعة كبيرة"

المبحث الرابع: موقف توما الاكويني من الهرطقة

ان مفهوم الهرطقة الذي يواجهُه توما الاكويني هو جزء من تراث لاهوتي، يحمله من اجل الدفاع عن عقيدته ممن يبتدعون في الايمان، وان الهرطقة هي ذاتها البدعة عند المسلمين .

فالمصطلح لا يستعمل الا على المستوى العقائدي، فالبدعة SECTE (من اللاتينية seqai) إنكار او رفض متعمد لاحدى أو لبعض قضايا الايمان، او الامر المحدث الذي لم يكن عليه [٣٤]

وان البدعة الدينية هي انحراف، وهذا الانحراف يتناول إما العقائد، أو الطقوس، أو النظام، ويشكل في الحالة الاولى هرطقة.

والهرطوقيّ: ضد مستقيم الرأي. تدل هذه الكلمة على من لا يوفق على صيغة الايمان[٣٥]. وان اشتراط وجود الهرطقة ان يكون هناك مبادئ ايمانية اساس وعلى الغالب هي موحى بها[٣٦].

ولم يعرف العصر القديم الاغريقي والروماني هرطقات، لان ديانته لم تكن مؤسسة على وحي الهي، وكانت تجهل بالتالي مفهوم " المبدأ الايماني" فلقد كانت لتلك الديانات طابع عرفي، وغير دوغمائي. سواء كان مقصود هو العبادة العامة للالهة حماة المدينة، أو العبادة العائلية للجدود أو حتى العبادة السرية التي كان المطلعون على الاسرار الدينية يؤدونها لآلهة من أصل طوطمي*** عموماً، فان هذه المجموعة من المعتقدات والطقوس لم تكن تشكل عقيدة ، الاعداد العقلاني لكلام مقدس.[٣٧]

وفقا لما تقدم فلايمان بالمسيحية لا يكون بالاكراه، لكن الخروج من الايمان يحذر منه توما الاكويني ومن الكفرة من كانوا قد اعتنقوا الايمان يوماً وهو يقربون به كالمبتدعة واهل الردة هؤلاء يجب اكراههم حتى بالعقوبات بالبدنية ايضاً على ان

ينجزوا ما به ويلزموا ما اعتنقوه من قبل[٣٨]. والا هذا الالتزم الذي يقره توما الاكويني من قبيل الالتزام الاخلاقي في الايفاء بالعهود او الالتزم القانوني الذي يحتم على متبع القانون عدم الاخلال به، لذا سوف يوسع قاعد الهرطقة ولا يجعلها حكر على الايمان الاعتقادي، بل ان الزيادة في معاني او مخالفه معاني التفسير الواردة في الكتاب المقدس التي تخل بالمعنى الحقيقي فيعدها أيضا من ضمن البدعة[٣٩] ، لكن الايمان هو موضوع البدعة الخاص، اما الاختلاف في الامور الدينية بين العلماء فلا يعد هرطقة كختلاف ايرونيموس**** واوغسطين في ابطال الطقوس الناموسية[٤٠].

ويتوقف على المبتدع في امرين، الاول يعتمد عليه والثاني على الكنيسة.

الاول هو الخطيئة " التي يستوجب ان يفصل عن الكنيسة، وقصاصة النفي من العالم بالموت[٤١]" ويشبه هذا الحكم على مزيفي العملة الذين يفسدون الاقتصاد والحياة وان اجتثاثهم من العالم يعد تجنبا لدراهم مزيفة وغيرها من الفساد.

الامر الثاني: من جهة الكنيسة هي الرحمة لقاصدين الاهتداء من الضلال، فهي لا تقضي عليهم بل، تعطيهم فرصه التوبة من بعد ان تنذرهم، والا اذا لم يتراجعوا كان عليهم ان يتخلصوا منهم، وهو تحذير من فساد اكبر كما يذكر توما على لسان القديس ايرونيموس " ينبغي قطع اللحم الفاسد وطرد النعجة الجرباء من الحظيرة لئلا يتولى اللهيب والفساد والنتن والموت جملة البيت والجمهور والبدن والقطيع". وهو بذلك يدفع عن طريق تجنب الهرطوقيون شرار الشر التي تفسد المجتمع بالكامل ومثال على ذلك مافعله اريوس الاسكندري*****.

بل ان للهرطقة فائدة كعلم الكلام عند المسلمين دفاعية وتنويرية، كذا الحال في علم اللاهوت ، فالهرطقة " بان الفائدة الحاصلة عن البدع وهي تقرر ثبات المؤمنين[٤٢]"

لان بولس الرسول كان يحث على الاجتهاد ومطالعة الكتاب المقدس " ودفع الكسل بالاجتهاد في مطالعة الكتاب المقدس" ويظهر مما تقدم خوف الكنيسة على الحفاظ على ايمان الافراد من البدع والردة والتشكيك في عقيدتهم في زمن كان التبشير

السمة الاساس لعمل القديسين لتوسيع رقعة اللاهوت المسيحية، وان الترهيب والتخويف في الجدل لمعتنقي العقيدة المسيحية من الرجوع عن ايمانهم سلاح لصد الباب امام الحركات والافراد المتهرطقيين.

الخاتمة

- قواعد الحوار تعطي مساحة للعقل في تعميق الجدل المبني على أساس إن الحوار تارة يكون ضار اذا كان المتلقي ليس على قدر واسع من الإحاطة بالمتحاور وقد يكون العكس.
- الحوار العقائدي فيه خير وشر، خيراً اذا ما دفع احدهم الى الايمان المسيحي وشر اذا ما زرع الشكوك في قلوب المؤمنين.
- التحذير من مراعاة الجدل والنظر في المكان والزمان لغير مناسب لانه يأتي بنتائج عكسية للمحاور.
- ان مسألة قبول الاخر لم تطرح خارج الكنيسة بصفة دينية من قبل، فهي متعلقة بقدر كبير من الخوف مع من يتسامح المسيحيون.
- توما الاكويني كسابقه اوغسطين يشترط في دخول الايمان فعل الارادة ، فلا يدفع اياً من المخالفين للايمان المسيح من دون فعل الارادة الحرة.
- الاضطهادات التي مورست في العصر السكولائية بالاصل ترجع لطموح السياسيين الذين استغلو الكنيسة وبعض رجالاتها من اجل توسيع رقعة سيطرتهم بدعوى التبشير او الدفاع الوجود المسيحي.
- المسيحية والاسلام يشتركان في ذات الطموح في توسيع رقعة دينهم لانهما من العقائد التبشيرية الدفاعية.
- المسيحية منذ القرون الاولى تجمع على عدم اكراه المخالفين " الكفرة " على الدخول في الايمان المسيحي لانه يسلب ارادتهم في اختيار .

- يقدم توما الاكويني مجموعة تفاسير للعديد من الآيات التي وردت في العهد الجديد التي يغلب على ظاهره الاكراه، الا ان الاكويني يفسرها بشكل عقلاني.
- ان رفض توما الاكويني لبعض من غير المسيحيين خوفا من عواقب قبولهم لانهم يمثلون خطر على المجتمع المؤمن.
- التسامح في العمل والتعايش والمعاشرة والعمل وممارسة الطقوس تبين مساحة الحرية التي يقدمها توما الاكويني.

الهوامش

١- ديفيز، فرانسيس، القديس توما ولاهوت العصور الوسطى، ضمن كتاب" موسوعة الاديان الحية، اعداد : ر. س. زينر،ج١، ترجمة: عبدالرحمن عبد الله الشيخ، دار الهيئة المصرية، ط١، ٢٠١٠، ص٢١٩.

٢- ومن الممثلين للتومايون الجدد هم اتيين جلسون وجاك ماريتان.

*- تميزت فلسفة توما الاكويني على فلسفة ارسطو، في مجال الطبيعة الضيق الذي فسره القدماء تفسيراً ناقصاً عن طريق " النور الطبيعي" للعقل البشري فهمه اللاهوت التومائي فهما واسع واكثر صدقاً، وبذلك يتم تصحيح اخطاء ارسطو واكمال النقص الموجود . يراجع : رايت، وليم كلي، تاريخ الفلسفة الحديثة، ترجمة محمود سيد احمد، تقديم ومراجعة: امام عبدالفتاح امام، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١٠، ص٣٨

٣- رايت، وليم كلي، تاريخ الفلسفة الحديثة ، ص٣٩.

٤- صالح، هاشم، مدخل الى التنوير الاوربي، دار الطليعة، ط٢، بيروت، ٢٠٠٧، ص١٣٩.

٥- بيورى ، ج، حرية الفكر، تعريب: محمد عبدالعزيز إسحاق، تقديم إمام عبدالفتاح إمام، المركز القومي للترجمة، ط١، ٢٠١٠، ص٥٢.

٦- قراملكي، احد فرامرز، مناهج البحث في الدراسات الدينة، ترجمة : سرمد الطائي، معهد المعارف الحكمية، ط١، بيروت، ٢٠٠٤، ص٢٣٧.

٧- ان فلسفة الدين ليست جزء من التعاليم الدينية ، ولا ينبغي أن تعالج من وجهة نظر دينية. فالملحد والمشكك والمؤمن جميعهم يستطيعون التفلسف حول الدين. للمزيد من يراجع . هيك، جون : فلسفة الدين، ترجمة طارق عسيلي، دار المعارف الحكمية، ط١، بيروت، ٢٠١٠، ص٣

٨- ٢ نيو ٢: ١٤.

٩- توما الاكويني: الخلاصة اللاهوتية، عربها عن اللاتينية المطران بولس عوّاد، دار مكتبة بيبلون ، بيروت،٢٠١٢، ج٥، ص٥٠٠

١٠- المصدر نفسه،، ج٥، ص٥٠٠

١١- المصدر نفسه ، ج٥، ص٥٠٠

١٢- المصدر نفسه ، ج ٥، ص٥٠٠

١٣- طرابيشي،جورج: مصائر الفلسفة بين المسيحية والاسلام، دار الساقي، بيروت، ط١، ١٩٨٨، ص٣٥

١٤- لوكلير، جوزيف: تاريخ التسامح في عصر الاصلاح الديني، ترجمة: حورج سليمان، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، بيروت ، ٢٠٠٩، ص١٠٩،

١٥- المصدر نفسه، ص١١١

١٦- اوغسطينوس: شرح رسالة القديس يوحنا الاولى، ص١١٧.

١٧- ينظر: الخطيب، محمد: حضارة أوربا في العصر الوسطى، دار علاء الدين، سوريا، ط٢، ٢٠٠٩، ص٤٢-٤٣

١٨- بيورى، ج حرية الفكر،تعريب: محمد عبد العزيز إسحاق، تقديم إمام عبدالفتاح إمام، المركز القومي للترجمة،٢٠١٠، ص٥٢.

١٩- قاسم، عبد قاسم، الخلفية الايديولوجية للحروب الصليبية، ذات السلاسل للطباعة والنشر، ط٣، ١٩٨٨، ص١٢

٢٠- توما الاكويني الخلاصة اللاهوتية، ج٥، ص٥٠٠.

** عشب اسمه باللاتينية Lolium – اسمه العلمي "لوليم تيمولنتم" (Lolium Temulentum) وهو ذو أطراف ليفية كثيرة، ينبت كثيرًا بين الحنطة (نبات القمح) بدون زراعة ومرّلت ينثر حبوبه وهو عشب سام يحدث أكله دوارًا وارتعاشًا وربما يسبب موتًا. يتعذر التفريق بينه وبين الحنطة في البداية، ولكن الفرق يظهر بعد النضج والإثمار. ولا يمكن اقتلاع الزوان من وسط الحنطة والا حدثت أضرار بالغة للحنطة، فيضطر صاحب الحقل إلى التأني عليه حتى وقت الحصاد فتنشغل النسوة والأولاد في جمعه أولًا للحريق وربما يستخدم لإطعام الدجاج والطيور، ثم تجمع الحنطة.
http://st-takla.org/Full-Free-Coptic-Books/FreeCopticBooks-002-Holy-Arabic-Bible-Dictionary/11_Z/Z_64.html

٢١- متي ١٣: ٢٧-٣٠.

٢٢- توما الاكويني الخلاصة اللاهوتية، ج٥، ص٥٠١.

٢٣- وقد استعاد القديس توما الاكويني خلاصة هذا القرار المجمعي في كتاب الخلاصة اللاهوتية ، ج٥، ص٥٠١

٢٤- لوكلير، جوزيف، تاريخ التسامح في عصر الاصلاح، ص١٠٩.

٢٥- لوقا: ١٤، ٢٣.

٢٦- توما الاكويني الخلاصة اللاهوتية، ج٥، ص٥٠٢.

٢٧- المصدر نفسه ، ج٥، ص٥٠٤

٢٨- المصدر نفسه ، ج٥، ص٥٠٤.

٢٩- المصدر نفسه ، ج٥، ص٥٠٩- ٥١٠.

٣٠- المصدر نفسه ، ج٥، ص٥٠٩- ٥١٠

٣١- المصدر نفسه ، ج٥، ص٥٠٩- ٥١٠.

٣٢- المصدر نفسه ، ج٥، ص٥٠٩.

٣٣- المصدر نفسه ، ج٥، ص٥١٠

٣٤- اليسوعي، صبحي حمود: معجم الايمان المسيحي، اعاد النظر فيه من الناحية المسكونية، الاب جان كوربون، دار المشرق، بيروت، ط٢، ١٩٩٨،ص٩٩. كذلك: وهبة، مراد: المعجم الفلسفي، دار قباء الحديثة للطباعة، ط١، القاهرة، ٢٠٠٧، ص١٣٥.

٣٥- اليسوعي، صبحي حمود: معجم الايمان المسيحي،ص٢٢٥

٣٦- ويتلر،ج: الهرطقة في المسيحية، تعريب: جمال سالم، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ط٢، ٢٠١٠، ص١٥.

*** الطوطمية نظام ديني عند الشعوب البدائية لا سيما اهل استراليا وافريقيا، يجعل العشيرة منحدرة من نبات او حيون، وهو الاغلب، فيكون لحمه محرماً على افرادها كما يحرم الزواج الداخلي. يراجع: القماطي، هنية مفتاح: الفكر الديني القديم دراسة في نشأة المعتقدات الدينية، منشورات جامعة قان يونس، ط١، بنغازي، ٢٠٠٣، ص٥٥

٣٧- ويتلر، ج: الهرطقة في المسيحية، ص١٦.

٣٨- توما الاكويني: الخلاصة اللاهوتية، ج٥، ص٥٠٢.

٣٩- توما الاكويني: الخلاصة اللاهوتية، ج٥، ص٥١٦.

****. وُلد حوالي عام ٣٤٢ م. يعد القديس إيرونيموس أو إيرينيموس أو جيروم St. Jerome من أعظم آباء الغرب في تفسيره للكتاب المقدس، له تراث عظيم في هذا المجال مع مقالات نسكية وجدلية ضد الهراطقة ورسائل. في مدينة ستريدون Stridon على حدود دلماطية وبانونيا وإيطاليا، من أسرة رومانية غنية وتقية. ولما بلغ الثانية عشرة من عمره أرسله والده إلى روما، فبرع في الفصاحة والبيان، وقد شغف بكبار شعراء اليونان والرومان. أهتم أيضًا بنسخ الكثير من الكتب كنواة لإنشاء مكتبة خاصة به. في هذا التيار انجرف إيرونيموس عن الحياة التقوية، لكنه عاد فتاب ثم نال سرّ العماد وإن كان قد بقي زماناً يصارع ضد الشهوات فكريًا. http://st-takla.org/books/fr-athnasius-fahmy/patrology/jeronimus.html#1-_:_%D9%85%D9%8A%D9%84%D8%A7%D8%AF%D9%87

٤٠- المصدر نفسه، ج٥، ص٥١٧.

٤١- المصدر نفسه، ج٥، ص٥٢٠

*****- نادى آريوس بتعاليم مخالفة للعقيدة المسيحية. فالمسيحية تؤمن بأن الله واحد في جوهره مثلث الأقانيم (الآب والابن والروح القدس إله واحد) فالابن من ذات جوهر الله أي أنه مولود منه ولادة جوهرية كولادة النور من النار، وقد ظهر الله في جسد المسيح (١تي٣:١٦).

أما آريوس فقد نادى بتعاليم منافية للعقيدة منكراً لاهوت المسيح وأنه لم يكن إلهاً بل هو مجرد إنسان مخلوق. http://alkalema.net/history/history2.htm

٤٢- توما الاكويني: الخلاصة اللاهوتية، ج٥، ص٥٢٠.